

وختاماً

موعظة

من بيت النبوّة

يا نفس.. اجعلي الموت منك على بال

لعلي زين العابدين

روى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عبد اللَّه المقري: حدثني سفيان بن عيينة، عن الزهري، قال: سمعت عليّ بن الحسين سيد العابدين يحاسب نفسه ويناجي ربه:

يا نفس حتَّام إلى الدنيا سكونك، وإلى عمارتها ركونك، أَمَا اعتبرت بمن مضى من أسلافك ومن وارته الأرض من أُلاَّفك[1]؟ ومن فُجِعْتِ به من إخوانك، ونقل إلى الثرى من أقرانك؟ فهم في بطون الأرض بعد ظهورها محاسنهم فيها بوال دواثر.

خلت دورهم منهم[2] وأقوت عراصهم[3] ... وساقتهمُ نحوَ المنايا[4] المقادرُ
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها ... وضمَّهُم تحتَ الترابِ الحفائرُ

كم خرمت أيدي المنون من قرون بعد قرون، وكم غيَّرت الأرض ببلائها، وغَيَّبت في ترابها، ممن عاشرت من صنوف وشيعتهم إلى الأمارس، ثم رجعت عنهم إلى عمل أهل الأفلاس:

وأنت على الدنيا مكبٌّ منافس ... لخطابها فيها حريصٌ مُكاثرُ
على خطرٍ تمشي وتصبحُ لاهيًا ... أتدري بماذا لو عقلتَ تُخاطرُ

---

(١) أصدقاؤك ومحبوك.

(٢) أقوت: خلت.

(٣) عراصهم: ساحاتهم.

(٤) المنايا: الموت.

وإن امرءًا يسعى لدنياهُ دائبًا ... ويذهل عن أخراهُ لا شكَ خاسرُ

فحتَّام على الدنيا إقبالك؟ وبشهَواتها اشتغالك؟ وقد وخطك القتير وأتاك النذير، وأنت عما يراد بك ساهٍ وبلذَّة يومك وغدك لاه، وقد رأيت انقلاب أهل الشهوات، وعاينت ما حل بهم من المصيبات:

وفي ذكرِ هولِ الموتِ والقبرِ والبلى ... عَن اللهو واللَّذاتِ للمرءِ زاجرُ

أبعدَ اقتراب الأربعينَ تربصٌ ... وشيبٌ قذالٌ منذرٌ للكابرُ

كأنك مَعْنِيٌّ بما هو ضائرٌ ... لنفسك عمدًا وعَنِ الرشدِ حائرُ

انظر إلى الأمم الماضية والملوك الفانية، كيف اختطفتهم عقبان الأيام ووافاهم الحِمام[1] ، فانْمَحتْ من الدنيا آثارهم، وبقيتْ فيها أخبارهم وأضحوا رممًا[2] في التراب، إلى يوم الحشر والمآب:

أمسوا رميمًا في الترابِ وعطلت ... مجالسهم منهم وأخلي مقاصرُ

وحَلّوا بدارٍ لا تزوارَ بينهُم ... وأنَّى لسكانِ القبورِ التزاورُ

فما أنْ ترى إلا قبورًا قد ثووا بهما ... مسطّحةً تُسفَى عليها الأعاصرُ[3]

كم من ذي منعة وسلطان وجنود وأعوان، تمكن من دنياه، ونال فيها ما تمناه، وبنى فيها القصور والدساكر[4] ، وجمع فيهما الأموال والذخائر، وملح السراري والحرائر:

فما صرفتْ كف المنيةِ إذ أتت ... مبادرة تهوى إليه الذخائرُ

---

(١) الحمام: الموت.

(٢) رممًا: بقايا العظام.

(٣) الأعاصر: الدهور.

(٤) الدساكر (فارسية)، مفرده: دسكرة وهي: القرية.

ولا دفعتْ عنه الحصونُ التي بنى　　وحفَّ بها أنهارهُ والدساكرُ
ولا قارعت عنه المنية حيلة　　ولا طمعت في الذّبِ عنه العساكرُ

أتاه من اللَّه ما لا يرد، ونزل به من قضائه ما لا يصد، فتعالى اللَّه الملك الجبار، المتكبر العزيز القهار، قاصم الجبارين، ومُبيد المتكبرين، الذي ذلّ لعزه كل سلطان، وأبادَ بقوتِهِ كل ديّان:

مليكٌ عزيزٌ لا يُرَدُّ قضاؤهُ　　حكيمٌ عليمٌ نافذُ الأمرِ قاهرُ
عَنَى كل ذي عز لعزة وجههِ　　فكم من عزيزٍ للمهيمنِ صاغرُ
لقدْ خَضَعَتْ واستَسْلَمتْ وتَضَاءَلَتْ　　لعزةِ ذي العرشِ الملوكُ الجبابرُ

فالبدار البدار والحذار الحذار من الدنيا ومكايدها، وما نَصَبَتْ لكَ منْ مصايدها، وتَحَلّتْ لكَ مِنْ زينتها، وأظهرتْ لكَ من بهجتها، وأبرزتْ لك من شهواتِها، وأخْفَتْ عنكَ مِنْ قواتلها وهلكاتها:

وفي دونِ ما عانيتُ منْ فَجَعاتِها　　إلى دَفْعِها داعٍ وبالزهدِ آمرُ
فجدَّ ولا تغفل وكنْ متيقظًا　　فعمّا قليلٍ يُتركُ الدارَ عامرُ
فشمّرْ ولا تفترْ فعمركَ زائلٌ　　وأنتَ إلى دارِ الإقامةِ صائرُ
ولا تَطلُب الدّنيا فإنّ نعيمها　　وإنْ نلتَ منها غِبّهُ لك ضائرُ

فهل يحرص عليها لبيب، أو يُسَرّ بها أريب؟ وهو على ثقة من فنائها وغير طامع في بقائها، أم كيف تنام عينًا من يخشى البيات، وتسكن نفس توقع في جميع أموره المَمَاتْ:

ألا لا ولكنّا نغرُّ نفوسنا　　وتشغلنا اللّذاتُ عما نَحاذِرُ
وكيفَ يلذُ العيشُ من هو مُوقَفٌ　　بموقفِ عدلٍ يوم تُبلى السرائر

كـأنّـا نـرى أنْ لا نُـشُـورَ وأنــنـا سُدَى ما لنا بعد الممـات مصادرُ

وما عسى أن ينـال صاحب الدنيا من لذَّتِهـا ويتمتع به من بهـجتها، مع صنوف عجائبها وقـوارع فجائعها، وكثرة عذابِهِ في مصابِهـا وفي طلبِها، وما يُكابِد من أسقامِها وأوصابِها وآلامِها:

أما قـد نـرى فـي كـل يـومٍ ولـيـلـةٍ يـروحُ عـلـينـا صـرفـهـا ويـبـاكـرُ
تُـعَـاوِرُنَـا آفـاتُـهـا وهـمـومُـهـا وكْـم قـد تـرى يـبـقَـى لـهـا المتـعـاوِرُ
فـلا هـوَ مـغـبـوطٌ بـدنـيـاهُ آمـنٌ ولا هـوَ عنْ تَطلابها النفسَ قاصرُ

كْم قَدْ غَرَّتْ الـدّنيا مِنْ مخلـد إليها، وصَرَعَتْ مِـنْ مُكبٍ عليهـا، فلم تُنعشه مـن عثرته، ولم تنقذه من صـرعته، ولم تشفه من ألمـه، ولم تبره من سقمه، ولم تُخلصه من وصمه:

بـل أوردتـهُ بـعـد عـزٍ ومـنـعـةٍ مـواردَ سـوءٍ مـا لـهُـنَّ مـصـادرُ
فـلـمّـا رأى أنْ لا نجــاةَ وأنّـهُ هو الموت لا يُنْجِيهِ مِنْهُ التحاذرُ
تـنـدم إذ لـم تـغـنِ عـنـه نـدامـةٌ عـلـيهِ وأبـكـتـهُ الـذنـوبُ الـكـبـائرُ

إذ بكى عـلى ما سلف مـن خطاياه، وتحسّر عـلى ما خلف مـن دنياه، واستغْفَرَ حتى لا ينفعه الاستغفار، ولا يُنْجيهِ الاعتذار، عند هول المنية ونزول البلية:

أحـاطـتْ بـهِ أحـزانـهُ وهـمـومـهُ وأبـلـسَ لمَّا أعْـجَـزَتْـهُ المـقـادرُ
فَـلَـيْـسَ لـه مـن كُـرْبَـةِ الموتِ فـارجٌ ولـيـسَ لـه مِـمَّـا يُـحـاذرُ نـاصـرُ
وقـد جشـأتْ[1] خوفَ المنيةِ نفسـهُ تـرددهـا مـنـهُ اللَّـهـا[2] والحـنـاجـرُ

(١) جشأت: خرجت.
(٢) اللّها هي: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.

هنالك خَفَّ عُوَّادُه، وأسْلَمَه أهْله وأولاده، وارْتَفعَتْ البرية بالعويل، وقد أيسوا من العليل، فَغمَّضُوا بأيديهم عينيه، ومدّ عند خروج روحه رجليه وتخلّى عنه الصديق، والصاحب الشفيق:

فكمْ موجع يَبْكي عليه مفجّعٌ ... ومستنجدٍ صبراً وما هو صابرُ
ومسترجعٍ داعٍ له اللَّهَ مخلصًا ... يعدد منه كلَ ما هوَ ذاكرُ
وكْم شامتٍ مستبشرٍ بوفاته ... وعمّا قليلٍ للذي صارَ صائرُ

فشقّتْ جيوبها نساؤه، ولَطَمَتْ خُدودها إماؤه، وأعول لفقده جيرانه وتوَجَّع لرَزيَّتِه إخوانه، ثم أقبلوا على جِهازِه، وشمّروا لإبْرازِه، كأنه لم يكنْ بينَهُم العزيز المُفَدَّى، ولا الحبيب المُبَدَّى:

وحلَّ أحبُّ القوم كانَ بقربهِ ... يحثُّ على تجهيزِهِ ويُبادِرُ
وشمَّر مَنْ قَدْ أحضروه لغَسْله ... ووجّه لمّا فاضَ للقبرِ حافرُ
وكفنَ في ثوبينَ واجتمعت لهُ ... مشيعةً إخوانُهُ والعشائرُ

فلو رأيتَ الأصغر مِنْ أولاده، وقدْ غلب الحزن على فؤاده، ويخشى من الجزع عليه، وخضبت الدموع عينيه، وهو يندب أباه ويقول: يا ويلاه وا حرباه:

لعاينتَ مِنْ قُبْحِ المنيّةِ منظراً ... يهالُ لمرآهُ ويرتاعُ ناظرُ
أكابرُ أولادٍ يهيجُ اكتئابهم ... إذا ما تناساهُ البنونُ الأصاغرُ
وربَّة نسوانٍ عليهِ جوازعٌ ... مَدامعهم فوقَ الخدودِ غوازرُ

ثم أُخرج من سعة قصره، إلى ضِيق قبره، فما استقرَّ في اللّحد وهيِّئ عليه اللَّبِن، احتوشته أعماله وأحاطت به خطاياه، وضاق ذرعًا بما رآه، ثم

حثوا بأيديهم عليه التراب، وأكثروا البكاء عليه والانتحاب، ثم وقفوا ساعة عليه، وأيسوا من النظر إليه، وتركوه رهنًا بما كسب وطلب:

فولوا عليه معولينَ وكلهمْ ... لمثل الذي لاقى أخوه محاذرُ
كشاءِ رتاعٍ آمنينَ بدا لها ... بمديته [1] بادي الذراعين حاسرُ
فريعَتْ ولم ترتَعْ قليلاً وأجفلتْ ... فلمّا نأى عنها الذي هو جازرُ

عادَتْ إلى مرعاها، ونسيت ما في أُختِها دهَاها، أَفَبِأَفْعَال الأنعام اقتدينا؟ أم على عادتها جرينا؟ عُدْ إلى ذكر المنقول إلى دار البِلى، واعتبر بموضعه تحت الثرى، المدفوع إلى هول ما ترى:

ثوى مفرداً في لحدِهِ وتوزَّعَتْ ... مواريثه أولادُه والأصاهرُ [2]
وأحنوا على أمواله يقسمونها ... فلا حامدٌ منهم عليها وشاكرُ
فيا عامرَ الدنيا ويا ساعيًا لها ... ويا آمنًا مِنْ أنْ تدورَ الدوائرُ

كيف أَمِنْتَ هذه الحالة وأنتَ صائر إليها لا محالة؟ أم كيف ضَيَّعْتَ حياتك وهي مطيتك إلى مماتِك؟ أم كيف تشبع من طعامك وأنت منتظر حِمامك؟ أم كيف تهنأ بالشهوات وهي مطية الآفات:

ولم تَتزوّدْ للرحيلِ وقدْ دَنَا ... وأنتَ على حالٍ وشيكٍ مسافرُ
فيا لهفَ نفسي كم أُسَوّفَ توبتي ... وعُمْرِيَ فانٍ والرّدى ليَ ناظرُ
وكلّ الذي أسْلَفت في الصحفِ مثبتٌ ... يُجازي عليهِ عادلُ الحكم قادرُ

فكم ترقع بآخرتك دنياك، وتركب غَيّك وهواك، أراك ضعيف اليقين، يا

---

(١) مديته: سكينته.

(٢) الأصاهر: جمع صهر: القرابة.

مؤثر الدنيا على الدين أبهذا أَمَرك الرحمن؟ أم على هذا نزل القرآن؟ أَمَا تذكر ما أمامـك مِن شِدّةِ الحسـاب، وشرّ المآب، أمَا تذكـرُ حال من جمـع وثمر، ورفع البناء وزخرف وعمّر، أما صار جمعهم بورًا، ومساكنهم قبورًا:

تُـخـرِّبُ مـا يَـبْـقـى وتُـعـمِّـرُ فـانـيًـا ... فـلا ذاك مـوفـوْرٌ ولا ذاكَ عـامـرُ
وهلْ لـكَ إن وافاكَ حـتـفـكَ بـغـتـةً[1] ... ولـمْ تكسب خيرًا لدى اللّه عاذرُ
أترضى بأنْ تفنى الحياةُ وتـنـقـضي ... ودِيـنـكَ مـنـقـوصٌ ومـالـكَ وافـرُ

* * *

(١) بغتة: فجأة.